أول درس ألقيته . . .(*)

أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التى ألقيت فيها أول درس فى أول فصل! كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً والسن حديثة والنفس غريرة والنظر قصير، وكانت المدرسة ثانوية أجنبية، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وأنماطاً من الأخلاق والتربية، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظرى على الطريقة الأزهرية ، وشدوت طرَفاً من التعليم الفنى على الطريقة اللاتينية ، إلا أن ما حصلت منهما كان لا يزال طافياً فى ذهنى ، متحيراً فى فكرى ، لا يطمئن إلى ثقة ، ولايستقرعلى تجربة ! أَضف ذلك إلى طبع حيي ولسان من الخجل عيي ، ووجه للقاء الناس هيوب

قضيت موهناً من الليل فى إعداد الدرس ، أراجع مادته وأرسم خطته وأسدد خطاه ، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس ؛ وغدوت إلى المدرسة أقرع باب الأمل المرجو ، وأَستطلع ضمير الغيب المحجب . دق الجرس فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه وتشق لفائفه ، وقمت أجر رجلى وبجانبي مفتش الكاية جاء يقدمنى إلى الطلبة . دخلنا الفصل فحيانا التلاميذ بالوقوف ، وقال المفتش فأطال القول وأَجزل الثناء ، ثم خرج وبقيت ! !

أقسم لك أنى أَقول الحق ، وإن كنت أجد بشاعة طعمه ومرارة مذاقه على لسانى ! لقد نظرت إلى التلاميذ نظرة حائرة ، ثم رجعت إلى نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المهيأ المحفوظ ، فكأن ذاكرتى صحيفة بيضاء ، وكأن لسانى مضغة جامدة لا تحس !

السكون شامل رهيب ، والأبصار شاخصة ما تكاد تطرف ، ووجوه الشباب

(*) نشرت فى عدد يناير من السنة الأولى من مجلة « التربية الحديثة » ١٩٢٨

ترتسم عليها ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس ونزوات الرءوس ، وأنا واقف منهم موقف المحكوم عليه ، أعالج فى نفسى الخور والحصر ، وأجهد فى لم ما تشعث من ذهنى وتبدد من قواى ، حتى هدانى الله إلى طريق الدرس ، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمة ولا تمهيد ولا عرض ! !

أتريد أن تعفينى يا صديقى من وصف هذا الدرس إبقاء علىَّ وصوناً لسر المهنة ؟ ولكن لماذا نتدافن الأسرار ونتكاتم العيوب ، ما دامت هذه المجلة خاصة بنا ، مكتوبة منّا ولنا ؟ إن فى الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادىء ، وتبصرة للناشىء الغرير

* * *

بدأت الدرس بصوت خافض وطرف خاشع ولسان مبلبل ، وسرت فيه وأنا واقف لا أدنو من السبورة مخافة أن أحرك سكون الفصل ، ولا ألمس الطباشير خشاة أن أسيء الكتابة ! !

كان من المعقول أن يعاودنى الهدوء ويراجعنى الثبات بعد زوال دهشة الدخول وربكة البدء ، لو كنت واثقاً من نفسي ، متمكناً من درسي ، ولكن نظام الموضوع كان قد انقطع فتبعثرت حباته ، وتعثرت خطواته ، ورحت أسرد ما تذكرته منه وأنا أشعر بكلماتى تحتضر على شفتى ، وبريقى يجمد فى فمى ، وبعرقى يتصبب على جبينى ، حتى فرغت ، ثم جلست أبلع ما بقى من ريقى ، ونظرت فإذا الساعة لم يمض نصفها ، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى كل شفة بسمة خبيثة لولا تعود النظام وقوة التهذيب لعادت قهقهة صاخبة ! !

ماذا أقول بعد أن نفد القول ؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقى من الوقت ؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة ؟ أسئلة كانت تضطرب فى خاطرى القلق فلا أجد لها جواباً غير الحيرة ! ! حتى تطوع تلميذ جرىء (لإنقاذ الموقف) فقال :

« إحك لنا حكاية يا افندى بأى ! »

ولم تكد شفتاى تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرنى آخر :

« لأ يا افندى ، اتكلم لنا شوية إنشا شفهى »

وآخر : « حضرتك حتدّينا على طول ؟ »

وآخر : « اسم حضرتك إيه يا افندى ، والله انت راجل طيب ! ! »

وآخر : « فلان صوته جميل يا افندي ، خليه يغنى شوية »

فقطعت سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة :

— على كل حال كاد الوقت ينتهى فلا يتسع لشيء من هذا :

ولكن صوتاً أشبه بصوت القدَر قد انبعث من أقصي الحجرة يقول :

« أوه ! دا لسَّه ساعة وربع ! حصةُ العربى ساعتين كل يوم ! ! »

— ساعة وربع ؟ ؟ نعم ساعة وربع ! أَقضيها على هذه الحال الأليمة كما شاء نظام (الفرير) ، أوكما قضي الجد العاثر والطالع المشئوم ! ! وإذن لا مناص من انفجار البركان ووقوع الكارثة !

***

كأنك تريدنى على أن أسوق إليك بقية القصة ! !

حنانيك ، ولا تكلفنى هذه الخطة ، واعتمد على نفسك وحدسك فى التخبر والاستنتاج . . . ! !

لقد انحل النظام فتشعث الأمر وانتشر ؛ وأذكر أنى حاولت الكلام مراراً فلم أسمع صوتى من اللغط ! فجعلت قيادى في يد أولادى ثم سكت حتى نطق الجرس . . ! !

خرجت من الفصل أميد من الهم وأجر ذيل الفشل السابغ الضافى ، وفى نفسى أن أترك التعليم وهو حديث صباى ومنتجع هواى إلى عمل آخر يصلح لى وأصلح له . . ! !

ولكنى عدت إلى الفصل ، ومضيت في التعليم ، وكنت بعد شهرين اثنين مدرس الفصل الأخير وأستاذ الكاية الأول ! !

فما الذى جعل من اليأس أملاً ، ومن الفشل فوزاً ، ومن الضعف قوة ؟

إسمح لى أن أكون صريحاً فيما كان لى ، كما كنت صريحاً فيما كان علىّ .

لقد التمست الوصلة إلى النجاح فى أسباب خمسة كلها معلوم بالضرورة مؤيد بالطبع ، ولـكن العلم غير العمـل ، والرأى خلاف العزيمة ، والتجربة وجود الفـكرة وواقع الحقيقة :

(١) مواصلة الدرس و إدمان النظر : فلم أترك كتاباً فى المواد التى أدرّسها حتى تقصيته أو ألممت به واستفدت منه ، وكان جدوى ذلك علىّ وثوق الطلبة بما أقول ، وظهور التجديد فيما أعمل ، وتصريف الدرس وتنويعه على ما أحب . ولن تجد أشفع للمدرس من سعة اطلاعه وغزارة مادته

(٢) إعداد الدرس وأداؤه : وكان يعنينى على الأخص ربطه بالدروس السابقة ، والسـير فيه مع الطلاب خطوة خطوة على الطريقة الاستنتاجية inductive ثم تلخيصه بطريق الأسئلة ، فكان من حسن إعداده أن ملأت الوقت كله به ، فلم يعد فيه فراغ لعبث عابث ولا تجنى سفيه ، وجررت إليه أذهان الطلاب بالتشويق والتطبيق والسـؤال فلم يصبهم سأم ولا ضيق ، وشغلتهم به عن أنفسهم وعنى فلم يفرغوا لاصطياد نكتة ولا لالتماس غميزة . وليس أعون على حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع ، ولا أضمن لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع

(٣) مسايرة الترقى : فلم أتشبث بالقـديم ، ولم أتعصب للـكتاب ، ولم أُعْنَ إلا بما له قيمة عملية . فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع ، والأمثلة مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله ، والبحث حر فى حدود المنطق ، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة . وفي تشابه الفـكرة والنزعة والغاية توثيق الصلة بين المعلم والمتعلم

(٤) حسن الخلق : ولعمرى ما يؤتى المعلم إلا من إغفاله هذه الجهة . فالادعاء والتظاهر ، والـكبرياء والتفاخر ، والبذاء والتنادر ، والـكذب والتحيز ،

والكسل والتدليس آفات العلم و بلايا المعلم . وما استعبد النفس الشابة الحرة كالخلق الكريم ، ولا يَسَّر تعليمها وتقويمها كالقدوة الحسنة . ناهيك بما ينبع ذلك من جمال الأحدوثة واستفاضة الذكر ، وهما يزيدان فى قدر المعلم واعتباره ، و يغنيان التلاميذ الجُدُد عن اختباره

(٥) قوة الحزم : فكنت ألين فى غير ضعف ، وأشتد فى غير عسف ؛ وأسير بالطالب إلى الواجب عن طريق ضميره وحسه ، لا عن طريق تأنيبه وحبسه ، وأجعل رضاى عنه غاية ثوابه ، وسخطى عليه غاية عقابه ، وأَعده الوعد فلا أذهل عن تنجيزه ، وأحكم عليه الحكم فلا أنكل عن تنفيذه ، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بإنشائه ، فأعامله بما يوائمه ، وأعالجه بالدواء الذى يلائمه

***

كل ذلك يسعده طبع غالب ، ورغبة حافزة ، ومرانة طويلة ، وقدَر من الله جعلنى أجد سعادتى وراحتى في الفصل و بين الطلاب ، أكثر مما أجدها فى البيت و بين الأصحاب

ولكن المعلمين وا أسفاه كما بدأهم الله يعودون ! فليت شعرى هل يكون الدرس الأخير في مبدإ مماتى ، كما كان الدرس الأول فى مبدإ حياتى ؟

